الاستشراق الفرنسي بالجزائر ما بين (1830-1930م) (قراءة في مقال لـــ هنري ماسي (Henri Massé) ترجمة أ.د/ محمد يحياتن رحمه الله)

أ. سهيلة دريوش

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

ملخص: بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف خلق الله وخاتم النّبيين والمرسلين نبيّنا الأمين أما بعد، فإنّ هذه الدّراسة تندرج ضمن موضوع تضاربت حوله الآراء بين مؤيّد ومعارض، وآخر يدعو إلى الإنصاف ببيان ما له وما عليه، كما اختلِف حول المناطق التي تشملها هذه الظاهرة، إذ نجد من يقصي المغرب العربي من هذه الظاهرة، باعتبارها لا تدخل ضمن الرقعة الجغرافية للشرق - بما فيها الجزائر- فهل هذا صحيح؟ وكيف نسمي حينها الأعمال العربية للفرنسيين بالجزائر؟ وقد استندت لمعالجة هذه القضية إلى مقال مترجم لأحد المستشرقين الفرنسيين أنفسهم، وفيه ذُكرت أعمال الفرنسيين ذات العلاقة باللّغة العربية، وكيف كانت فرنسا تنظر إلى الجزائريين، وكيف وظفت المستشرقين لترسيخ أقدامها بالجزائر، كل هذا سيكشف عنه المقال.

الكلمات المفاتيح: اللّغة العربية، الجزائر، الاستشراق، الاستعمار الفرنسي، المعاجم، التّعليم الدّراسات العلمية.

اخترت دراسة للمستشرق الفرنسي هنري ماسي(Henri Massé)، بعنوان: "**الدّارسات العربية في الجزائر**" (1830-1930م)، التي عُنيت بكل ما له صلة باللّغة العربية في الجزائر خلال هذه الفترة من الاحتلال سنتتبع هذا المقال لنكتشف بعض الوقائع والحقائق المتعلقة بالاستشراق الفرنسي بالجزائر، والتي جاءت على لسان أهلها، كما سأغتنم الفرصة عبر هذا المقال لتعريف القارئ الكريم بظاهرة سياسية عسكرية، دينية، علمية، ثقافية... غريبة.

يتمثّل هذا العمل في إعادة تثمين التّرجمة التي قام بها الأستاذ الدّكتور محمد يحياتن رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وهي ترجمة لبعض المقالات الواردة في المجلة الإفريقية التي تأسست سنة 1856م الموسومة: "**دراسات حول اللّغة العربية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية**"، (محمد يحياتن، 2005) منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية، حيث تعكس هذه التّرجمة اهتمام المرحوم باللّغة العربية وحبّه الشّديد لها، (ولد المرحوم الأستاذ الدّكتور محمد يحياتن سنة 1953م، بقصر الشلالة ولاية تيارت، كان من أكثر الأساتذة تواضعا وعطاء وحبا للطلبة، يشهد له الجميع بنبوغه العلمي والمعرفي وحبّه للعلم وللوطن وللّغة العربية. أثرى المكتبة الجامعية بأعمال كثيرة، نقدية ولسانية، كما ترجم العديد من الروايات الجزائرية إلى العربية، منها "وردة في الهاوية" لعيسى خلادي، ومن نشاطاته تأسيس جمعية أحباب الكتاب. انتقل إلى رحمة الله، وهو في أوجّ عطائه، يوم 16 ماي 2012م).

أما الإشكاليات التي تسعى هذه الدّراسة إلى الإجابة عليها، فأختصرها في ما يلي:

1- ما هي الخلفية التّاريخية للاستشراق؟

2- هل هناك تداخل بين مصطلح الاستشراق والاستعمار، والتّنصير؟

3- هل هناك علاقة بين الاستشراق الفرنسي والاحتلال الفرنسي؟

4- هل تدخل دراسات الفرنسيين بالجزائر حول اللّغة العربية في ما يعرف بالاستشراق؟

5- ما هو سر اهتمام الفرنسيين باللّغة العربية، وما هي وسائلهم في ذلك؟

6- ما هي المجالات التي اهتم بها المستشرقون الفرنسيون؟

7- ما هي نتائج هذه الظاهرة على الجزائر وفرنسا؟

لمحة تاريخية: لابدّ لمن يريد الولوج إلى عالم من العوالم أن يعدّ العدة، ويبحث ويستكشف قبل ذلك، وها هنا لا يمكننا الاستغناء عن التاريخ، فهو خير شاهد ودليل

يأخذ بأيدينا، ولاسيّما إذا تعلّق الأمر بظاهرة قديمة نُسِجت خيوطها منذ مئات السّنين، هي ظاهرة أثارت الكثير، وأثير حولها الكثير، وجلّ ما نعيشه ونشاهده الآن هو من آثارها أو من ثمارها؟ فلنترك الحرية للقارئ الكريم لاختيار القرار الحكيم. فلنعد أدراجنا إلى بداية الحكاية، علّنا نهتدي إلى سر النّهاية؟ والأسئلة كلّها مشروعة، لبلوغ الغاية وتحقيق الدّراية فلنتساءل إذن: كيف ومتى وأين ولماذا الاستشراق؟

سنفتتح الكلام بما قاله الباحث أحمد عبد الرّحيم السّايح: " يذكر الباحثون أنّه من القرن الخامس الميلادي حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، كانت أوربا تعيش فترة يسمونها "العصور الوسطى"، ويعدونها عصورا مظلمة، وكانت هناك نافذة أخرى فُتحت أمام أوربا على الشرق وهي الحملات الصليبية على بلاد الإسلام فقد جلب الصليبيون معهم إلى أوربا كثيرا من عادات المسلمين وأزيائهم وأنماط حياتهم ووسائلهم في الحرب والبناء". (أحمد عبد الرحيم السّايح، 1996 ص 22)، قد يقول قائل هذا كلام العرب وبديهي أنّهم سَيُشيدون بأمتهم، ولنجيبهم سنستشهد في هذا المقام بقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave le bon) الذي يعترف بتفوّق الحضارة الإسلامية: «إذا ما نظرنا إلى تقدّم العلاقات التّجارية المطّرد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة تجلى لنا أنّ الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التّوحّش وأعدّوا النّفوس إلى التّقدّم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعوّل عليها، فينبثق عصر النّهضة منها ذات يوم». (ممدوح حسين وشاكر مصطفى، 1998م، ص 620). يكشف لنا هذا القول وجها آخر لأوروبا قد يجهله الكثيرون، لأنّها أبدعت أيّما إبداع في مسح هذه الحقيقة وإلغائها من ذاكرة أعدائها قبل أتباعها وأهلها، فقلة هم هؤلاء الذين يذكرونها، وإن ذكرت فالمتكلم غافل والسامع أصم، والرائي أعمى. نعم، تلكم هي الحقيقة المؤلمة، تلك الفترة التي كانت

فيها أمة الإسلام والسلام دار علم وحضارة وعزّ، يقول الباحث إبراهيم المحجوبي: "إذ رأى الغرب بعد احتكاكهم بالشرق أناسا عندهم حضارة وفلسفة وشريعة، فلفت كل ذلك نظر الغرب إلى الفكر العربي الإسلامي، فحفزهم إلى التوغل فيه بحثا وتدقيقا". (إبراهيم المحجوبي، 2010م، ص 19)، من هنا تبدأ العنكبوت بنسج شبكتها لتحكم القبضة على فريستها فالغرب لم يتقبّل فكرة وجود أمة مسلمة قوية وأوّل ما تبادر إلى الأذهان هو غزو هذا المكان، وفي هذا الزمان تأتي الحملات الصليبية، التي منيت بهزيمة نكراء، إلاّ أنّ هزيمة أوروبا كانت السرّ الذي فجّر طاقاتها وجعلها تحسِب للأمة الإسلامية ألف حساب، إذ يعتبر معظم المهتمين بموضوع الاستشراق أنّ البوادر الأولى لهذه الظاهرة مرتبطة بفشل الحملة الصليبية على العالم الإسلامي التي قاد غمارها الغرب، وهذا الانهزام العسكري جعلهم يعيدون حساباتهم، فسلكوا طريقا آخر هو مسلك العلم والمعرفة، وهو ما لا يكون إلاّ بالتّمكن من لغة العدو ورصيده العلمي والمعرفي، فبدؤوا بتعلّم اللّغات الشرقية وعلى رأسها اللّغة العربية يقال إنّ "رامول لول" (Ramol Lohl) كان مسؤولا على تأسيس معاهد للدراسات العربية، يليها بعد ذلك شروع الأديرة في تدريس المؤلفات العربيـــة المترجمة إلى اللاتينية. (إبراهيم المحجوبي، 2010م ص 18). كما قلنا بعدما فشل السّلاح في إخضاع المسلمين بحثوا عن منفذ آخر يلجون عبره إلى حصن هذا العدو القوي والصامد إلى حين، ومن الأسرار التي كشفوها هو أنّ سر قوة عدوهم يتمثل في عقيدتهم ودينهم، فكانت الخطة محكمة وشرعوا في تشييد صرحهم العلمي على حساب منافسهم.

حيث أشار الباحث إسماعيل أحمد عمايرة إلى هذه الفكرة في قوله: "وقد دعا إلى هذا الاتّجاه وفي فترة مبكرة رئيس دير "كلوني" Cluny " المعروف باسم بطرس المبجل (Portus venerabilis) الذي تبنى فكرة ترجمة القرآن للمرة الأولى فترجمه الانجليزي (Robert Ketton) إلى اللاتينية سنة 1143م، وكانت هذه

الخطوة أوّل استثمار للغة العربية، وقد كان ذلك جزءا من مخطط عام يدعو إلى تنصير المسلمين من خلال تشكيكهم في معتقداتهم، أي بالوسائل الثقافية بدلا من قوة السلاح". (إسماعيل أحمد عمايرة، 1992م، ص 28)، وقد لقيت هذه الفكرة تشجيعا من لدن الأوروبيين فتعاونوا جميعهم لتحقيق هدفهم، فلئن كانت بينهم عداوات إلاّ أنّ عدوهم الأكبر والمشترك جعلهم يتوحّدون ويتجاوزون أحقادهم فيما بينهم، وتوجيهها صوب المسلمين، وفي هذا الكلام مزيد بيان، "لما جاء القرن الثالث عشر أدرك "روجر باكون" (Roger Bacon) ضرورة الاتّصال ثقافيا بالحضارة الإسلامية، وضرورة تعلّم اللّغة العربية، بل التّسلّح بأفكار المسلمين وطرائقهم في المحاججة للردّ عليهم، وقد ظلّ هذا الاتّجاه يتنامى إلى أن عُقد مجمع فينا عام 1312م، الذي أوصى أن تدرّس العربية في كبرى المراكز العلمية الأوروبية: باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينون وسلامنكا، وتعدّ هذه الخطوة بداية المحاولات الأوروبية رسميا للاهتمام باللّغة العربية...انتصارا للاتّجاه الأوروبي الداعي إلى مقاومة المسلمين ثقافيا، وذلك عن طريق دعوة النّاس إلى النّصرانية بالعربية مباشرة، ويقوم بذلك خريجو المدارس المذكورة" (إسماعيل أحمد عمايرة المرجع نفسه، ص 36)، سأختم هذه المحطة بأحداث البداية، «وفي أواخر سنة 490 هـ الموافق لـ 1096م تجمعت في القسطنطينية أربعة جيوش، قدّر عددهم بـ 600 ألف وقيل مليون... وقد تحالفوا ضد المسلمين وهذا يشبه تحالفهم علينا بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، وكانوا بقيادة بودوين دي هينو الألماني والقائدين القومس وفرماندوا الفرنسيين والقائدين بوهيمو نددي وتنكري الإيطاليين مع هذا فقد كانوا متباغضين متحاقدين وقد كان جنديهم ينادي بأعلى صوته ويقول: أماه...أتمي صلاتك...لا تبكي. بل اضحكي وتأملي. أنا ذاهب إلى طرابلس...فرحا مسرورا. سأبذل دمي في سبيل الأمة الملعونة. سأحارب الدّيانة الإسلامية. سأقاتل بكل قوّتي لمحو القرآن»، (أحمد باقر، وعبد الله

مبارك، 1981م، ص ص 19، 20)، يكشف هذا الكلام عن الحقد الدّفين الذي يحمله الغرب للمسلمين والإسلام...

عذرا أستسمح القارئ الكريم، مضطرة لإسدال الستار فأحداث الحكاية ستستغرق أزمانا وأزمانا، وتستلزم أبوابا وفصولا والوصول إلى النّهاية أمر ليس باليسير، والمقام لا يسمح بسرد المزيد لئلا ينحرف بنا التيار، سننتقل مباشرة إلى محطة أخرى لتحديد بعض المصطلحات.

ربّما انتبه القارئ الكريم إلى أنّ موضوعنا الأساس هو "الاستشراق وبالتّحديد الفرنسي"، الذي عرفنا بعض الشيء عن تاريخه، وكشفنا خلفياته النّفسية، والثّقافية والأطماع السياسية والعسكرية التي رافقته وحرّكته. سنلقي نظرة سريعة على هذا المصطلح وما جاوره، (الاستشراق، التنصير، الاحتلال، الاستعمار) ما يهمنا هو كشف أقنعتها، لأنها جميعها وجوه لعملة واحدة، وكل منها يخدم الآخر.

1 - تحديد المصطلحات:

1- **1- مصطلح الاستعمار:** لطالما كان القرآن الكريم هو دستور اللّغة العربية الخالد إليه نحتكم، إذا عرض لنا أمر من أمورها فلنتأمل الآية الكريمة ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُــمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61)**﴾، [هود/61]. اشتملت الآية الكريمة على جملة "استعمركم"، وهو الشاهد الذي نبحث عنه، وفي معجم لسان العرب يدل على معنى العمار والاستخلاف على الأرض، أي جعل الإنسان يعمر الأرض. (ابن منظور، دت مادة (عمر))، فترى هل ينطبق هذا المفهوم على مصطلحنا؟ الاستعمار اصطلاحا هو "تعبير أطلق على استيلاء شعب بالقوة العسكرية على شعب آخر لنهب ثرواته واستغلال أرضه وتسخير طاقات أفراده لمصالح المستعمرين، ويرافق ذلك اتّخاذ

مخططات تحويل هذا الشعب عن دينه ومفاهيمه ومبادئه وأخلاقه وسلوكه الفردي والاجتماعي إلى ما عليه دولة الشّعب الغالب المستعمر من مبادئ ونظم وعادات" (عبد الرحمن حنبكة الميداني، 2000، ص 54). نلاحظ أنّ المصطلح يقارب المعنى اللغوي، إذا علمنا أنّ فرنسا جاءت إلى الجزائر لتستخلف الشعب الجزائري، وتكون هي صاحبة هذه الأرض، وهم عبيدها الذين يخدمونها، فتكون الجزائر والجزائريون بذلك في خدمة مصالح فرنسا، ولا بدّ أنّ الجزائريين هم أكثر الشعوب إدراكا لمعاني هذا المصطلح، فقد دفعوا النّفس والنّفيس ثمنا لكسر قيوده.

1-2- مصطلح التّنصير: أودّ أن أشير إلى أنّ هناك مصطلحا آخر يوظفه بعض الباحثين في هذا السياق، وهو مصطلح "التّبشير"، وكما نلاحظ فالكلمة تحمل دلالة البشرى، وهي كذلك بالنسبة إلى الذين يؤمنون بالمسيح عليه السّلام لا كنبي بل باعتباره ربا وخالقا، أما نحن المسلمين فهي نعي وخروج عن دين الحق وانصراف عن دين الله القويم الذي دعانا إليه محمد صلى الله عليه وسلّم، ولهذا لا يحسن بنا أن نوظّفه، فالأنسب هو مصطلح "التنصير"، سنكتشف هذا المصطلح من خلال تعريف عبد الرحمن حنبكة، وهو" تعبير أطلقه رجال الكنيسة النّصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشّعوب غير النّصرانية ولاسيّما المسلمون ثمّ تحوّل هدفهم إلى غاية التكفير وإخراج المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين". (عبد الرحمن حنبكة الميداني، المرجع نفسه، ص 53).

يوضّح هذا التّعريف حقيقة يجهلها الكثيرون، وهي أنّ هدف رجال الكنيسة الوحيد هو التّمكين لدينهم وفرض السيطرة على غيرهم، وذلك بتقديم الأدلة والبراهين على أنّه دين خير وسلام، بدليل أنهم يساعدون الجميع، وكذا إقناع الجميع بأنّ الإسلام عكس ذلك، القريب منهم قبل الغريب، وفي الحقيقة كل ما يهمهم هو أن يخرج المسلم عن دينه، ليثبتوا ضعفه.

صحيح أنّ المهتمين الأوائل باللّغة العربية كانوا من رجال الدين، إلاّ أنّ التاريخ القديم والمعاصر يكشف لنا أنّهم لم يرضوا يوما بأن يكون المسلم مسيحيا إلاّ لخدمة مصالحهم وإخضاعهم، وتحقيق تفوقهم على حسابهم، فالنّصراني يجب أن يكون هو المالك الوحيد لأنعم الله وآلائه، والثروات التي يتنعم فيها وبها المسلمون ليسوا أهلا لها، ولهذا يجب أن يكونوا هم الأسياد فيها وعليها ويمكن اعتبار التّنصير ستارا حاجبا لنوايا المستدمر، ليبرر جرائمه ويضفي (الشرعية) على أعماله.

1-3-**مصطلح الاستشراق والمستشرق:** سنركّز على صيغة هذه الكلمة، التي وردت على وزن "اِسْتِفْعَال"، ونحن نعلم أنّ هذا الوزن يدلّ على طلب الشيء فنقول إنّ الكلمة تدلّ على طلب الشّرق، أما اصطلاحا فيقول الباحث محمد فاروق النّبهان "... واستشرق في المفهوم الاصطلاحي طلب علوم الشرق، واتّجاه للتّخصّص في معرفتها، والمستشرق هو المتخصّص في علوم الشّرق وحضارته وآثاره وفنونه وأطلقت كلمة مستشرق لأول مرة سنة 1630م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشّرق". (محمد فاروق النبهان 2012م، ص11). يوضح هذا التّعريف أنّ الاستشراق هو معرفة للشرق من كل نواحيه؛ علميا ونفسيا، واجتماعيا، وتاريخيا وجغرافيا وعرقيا، ودينيا وسياسيا واقتصاديا، وثقافيا، وكنا قد عرفنا في المنطلق لِمَ كل هذا؟ فالاستشراق كان بمثابة البوصلة للمستدمر يدله على نقاط القوة ليحذر منها ويقضي عليها وعلى نقاط الضعف ليعزّزها وينفذ عبرها. ما يجب أن نقف عنده هو أنّ هذا المصطلح تعرّض للتّحوير، إذ حاول المستشرقون تعويضه بمصطلحات أخرى مثل: الاستعراب والمستعرِب. وهو المصطلح الذي ورد في المقال (المدوّنة)، وهذا إشكال آخر يحتاج إلى دراسة مستقلة.

لا بأس بالإشارة إلى أنّ المستشرقين قاموا بأعمال عديدة في اللّغة العربية بحثا وجمعا وتحقيقا وترجمة، وتأليفا، وليس أمامنا إلاّ الاعتراف بهذا الصنيع، وذلك

بغض النّظر عن الخلفيات والأهداف، ومع ذلك سأحاول حلّ بعض الألغاز، بالقدر الذي يسمح به المقام.

كنّت قد أثرت إشكالية مطروحة لدى بعض الباحثين، وهي: هل تعتبر الجزائر حقلا تشمله ظاهرة الاستشراق، باعتبارها لا تنتمي إلى الشرق جغرافيا؟ هذا ما سيجيبنا عنه كتاب "الحروب الصّليبية في شمال إفريقية"، حيث يتحدّث المؤلفان عن إفريقيا باعتبارها معبرا رابعا بالإضافة إلى الأندلس وصقلية وبلاد الشام، في عملية انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، كما يشيران إلى غفلة المؤرّخين عن إفريقيا، وقد فسّرا ذلك (الغفلة) بسمة، وهي تجانس الحضارة الإسلامية في جوانبها الفكرية بسبب تأثير الدين ووحدة اللّغة. (ينظر ممدوح حسين وشاكر مصطفى، 1998م، ص 621)، يوضّح الباحثان دور شمال إفريقيا في انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، ويؤكدان الوحدة الحضارية لأمة الإسلام «فأسلوب المسلمين في حياتهم الاجتماعية واحد في المشرق والمغرب وهو أسلوب يستظلّ بآداب الإسلام وأحكامه». (ممدوح حسين وشاكر مصطفى، المرجع نفسه ص 622)، قد يختلف أهل المشرق والمغرب في بعض العادات والقضايا الثقافية إلاّ أنّهم يتفقون حول أمور عقيدتهم، وهو أهم عنصر في حياة الإنسان، وهو نفسه الذي يجعل المغرب ينضوي ضمن المشرق، ليستنير بحضارته المشرقة آنذاك. فهل يمكن إنكار هذه الحقيقة؟

2- **علاقة الاستشراق الفرنسي بالاحتلال الفرنسي:** يقال إنّ التّاريخ هو ذاكرة الشّعوب، فإذا أردنا معرفة الحاضر والمستقبل، فلا مفر لنا من العودة إلى الماضي، بل يكون في معظم الأحيان مفتاحا يوصلنا إلى الإجابة على تساؤلاتنا ولنقترب من الموضوعية، سننطلق ممّا قاله الفرنسيون أنفسهم، لنعرف علاقة الاستشراق بالاحتلال. وسنركز هاهنا على الاستشراق الفرنسي، الذي مهدنا له بلمحة عن الاستشراق عامة.

ورد في المقال الذي ترجمه المرحوم الدّكتور محمد يحياتن للمستشرق الفرنسي هنري ماسي: "يبتدئ تاريخ الدّراسات العربية في الجزائر بوصول الجيوش الفرنسية سنة 1830. وكما حصل مع الحملة الفرنسية على مصر، فقد صاحب فريق من التّراجمة الجيش الذي كان على رأسه دوبورمون (De Bourmont) خلال العمليات العسكرية التي أفضت إلى الاستيلاء على الجزائر، قدّم عدد من هؤلاء التراجمة خدمات عظيمة، وإنّه لمن الإجحاف بمكان عدم الإشارة إلى أسمائهم هاهنا (يمكن الوقوف على سير حياتهم في كتاب فيرو Feraud الموسوم" les interprètes de l'armée d'Afrique"، (محمد يحياتن، المصدر السابق ص 70). وهذا الكلام للمستشرق الفرنسي هنري ماسي الذي حرص على الإشارة إلى كل الدراسات ذات الصلة بالعربية وفي المجالات كلّها، وما يعنينا في هذا المقام هو ما افتتح به مقاله، إذ ربط بداية الاهتمام باللّغة العربية في الجزائر بتاريخ دخول الجيش الفرنسي، وهو ما يثبت علاقة الاستشراق بالاحتلال في الجزائر.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله: «ومن الواضح أنّ الاستشراق هنا كان مرتبطا منذ البداية بإدارة الاحتلال، وقد ازدادت هذه الرابطة وثوقا وبلورة أثناء المرحلة الثانية (1879–1930)». (ينظر أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج6، ص 13). وهذا يعني وجود تعاون بين الطّرفين، يفصّل الدكتور أكثر في ذلك: «وإذا كان بعض المستشرقين في فرنسا نفسها لهم نظرة واسعة للمجتمعات الإسلامية، فإنّ المستشرقين في الجزائر كانوا مرتبطين كما ذكرنا بالإدارة الاستعمارية ارتباطا سياسيا، وكانوا مدعومين من قبل لجنة (إفريقيا الفرنسية) التي كان مقرها باريس، ومن قبل زعماء الكولون أمثال يوجين إيتيان (Yougine Itiane) ومن الجامعات الفرنسية، ومن اللوبي الاستعماري عموما». (أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 14). يؤكد الباحث إبراهيم لونيسي هذه الفكرة

قائلا: « لقد أعطى الاحتلال الفرنسي بالجزائر دفعا قويا جدا لحركة الاستشراق الفرنسي بمحتواه الاستعماري، إذ وقعت جل المخطوطات والوثائق الجزائرية وآثارها المختلفة بين أيدي مستشرقيها الذين شرعوا في تحليلها ودراستها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية، بهدف توظيف كل ما يتوصلون إليه من نتائج في عملية تثبيت الوجود الاستعماري في الجزائر، وإرساء قواعد على أسس قوية، وهو الأمر الذي كشف للإدارة الفرنسية أهمية التراث الثقافي والفكري والحضاري العربي الإسلامي، وأبعاده الخطيرة مما جعلها تولي أهمية خاصة له، وذلك بجمعه وتمحيصه وتقييمه واستخلاص النتائج منه»، (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق ص ص134، 135). نستنتج ممّا سبق العلاقة المتينة بين كل من الاستشراق والاستدمار، فهما معولان موجهان لخدمة مصالح فرنسا بالجزائر.

يؤيّد الأستاذ الطيّب بن إبراهيم هذه الحقيقة قائلا: «إنّ القوتين الفرنسيتين الاستشراقية والاستعمارية كانتا متطابقتين ومتلاحمتين، والعلاقة بينهما كانت أكثر انسجاما وتكاملا، ويعود ذلك لوحدتهما القومية والمصلحية والوطنية في إطار فرصة تاريخية ظرفية استثنائية، فالاستعمار الفرنسي يتميّز عن غيره بأنّه كان استعمارا استيطانيا خاصة في شمال إفريقيا، وعلى وجه خاص في الجزائر، وهذه السياسة الاستيطانية كان الاستعمار يعمل على تكريسها ثقافيا عن طريق الاستشراق ومنظومته دعما للاستيطان الثقافي فالاستعمار والاستشراق ما هما إلا استيطانان، الأوّل استعماري والثاني استيطان ثقافي...». (الطيب بن إبراهيم المرجع السابق، ص 103)، يمكن القول إنّ القوة الاستدمارية كانت تغذي الاستشراق، وكذلك الاستشراق كان يغذي الاستدمار، وقد يتحوّل الأمر إلى قضية فلسفية، والحقيقة هي أنّ الاستدمار ما كان لينجح لولا الاستشراق، الذي زوّده بدراسات وتفاصيل حول فريسته، ومن مكائد فرنسا التي استمدت بنودها من تلك الدّراسات إثارة الفتن بين العرب والأمازيغ، « فالغاية التي كانت فرنسا تعمل

للوصول إليها هي التفرقة بين السكان ذوي الأصول العربية والأمازيغية، وقطع أواصل الصلة والتّمييز بينهم عرقيا وثقافيا وضرب قوة العلاقات التاريخية والاجتماعية والدينية والثقافية والحضارية التي تمّ بناؤها في شمال إفريقيا بين العرب والأمازيغ خلال عشرات القرون، ومحاولة إضعاف وحدة المجتمع وإيجاد كيانات ثقافية وعرقية متنافرة ومتناحرة، لتجد فرنسا المناخ الملائم لوجودها وبقائها، فتحالف هذا حينا، وذاك حينا آخر...». (الطيب بن إبراهيم، المرجع نفسه ص 168). كما نجد اعترافا صريحا من حكام فرنسا بالدور الذي يؤديه المستشرقون: «...ثمّ يتمنى الوالي العام أن يستفيد من هؤلاء المستشرقين ويستخلص منهم بعض الأفكار التي ستسهل له عملية تسيير شؤون الجزائر». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 156)، لا بدّ أنّ هذا الكلام في غنى عن أيّ تأويل.

تعرّفنا على مصطلح الاستشراق، واكتشفنا العلاقة التي تربط بين الاستشراق الفرنسي والاستدمار الفرنسي، وآن الأوان لنجيب على السؤال؟ لماذا اهتمت فرنسا باللّغة العربية في الجزائر؟ وهل تدخل هذه الدّراسات في ميدان الاستشراق؟ سنفسح المجال أمام هذه الأعمال لحلّ الإشكال.

سنبدأ بهذا القول: "السلطات الفرنسية اكتشفت مدى أهمية اللّغات الشرقية بالنسبة إلى مشاريعها الاستعمارية مع أواخر القرن الثامن عشر، لذلك قامت سنة 1795م بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحيّة، وعلى رأسها اللغة العربية التي اكتشفت مدى أهميتها مباشرة بعد حملتها على مصر سنة 1798م، باعتبار أنّ اللّغة العربية هي لغة الشرق الكبرى والأساسية، وقد زاد اهتمامها بهذه اللّغة مع ازدياد أطماعها في الجزائر، وعملها الدؤوب لاحتلال هذه الرقعة الجغرافية التي هي جزء من الشرق بمفهومه الحضاري العميق والواسع". "(إبراهيم لونيسي، المرجع نفسه ص97). وفي هذا الكلام تأكيد لفكرة تحدثنا عنها، وهي أنّ الجزائر كانت ولا تزال

ضمن مجال الاستشراق، وهذا بتصريح من الفرنسيين أنفسهم، فالجزائر لا تنتمي إلى الشرق بمفهومه الجغرافي، بل بالمفهوم الحضاري للكلمة.

3- **مجالات الاستشراق الفرنسي بالجزائر:** سنتناول أبرز المجالات التي تطرّق إليها الاستشراق الفرنسي، وقد خصّصت مدارس وجمعيات لتسهيل مهمة المستشرقين، وإضفاء الصبغة العلمية عليها، ومما ورد في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي، «نستعمل عبارة (مدرسة الجزائر) للدلالة على الانطلاقة الفكرية للاستشراق الفرنسي والدّراسات العلمية...فهي مدرسة فكرية أثّرت في الأدب والفن واللّغة والتّاريخ، والعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين...»، (أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج6، ص7). نفهم من هذا الكلام أنّ الاحتلال الفرنسي وظّف مدرسة الاستشراق في المجالات التي تخدم فرنسا ومصالحها بالجزائر.

سنحطّ الرّحال عند أهم الأعمال، متتبعين ما جاء في المقال الذي افتتح بالحديث عن المعجم والتّرجمة، وقد يصعب الفصل بين هذين المجالين، فترى ماذا ورد بشأنه؟

3-1- حاجة الفرنسيين إلى المعاجم: يفتتح المستشرق هنري ماسي في البداية بمعجمين وضعا تحت تصرّف الجيش الفرنسي، "هناك معجمان عربيان وضعا في متناول ضباط الجيوش الغازية: أوّلهما مشفوع بحوارات، وقد وضعه التّرجمان بنيمين فانسان (Benjamin Vincent)، وقد نشر بأمر من وزارة الحرب. أما الثاني فصاحبه إبراهيم دانينوس (Abraham Daninos) المولود بالجزائر والمتجنّس بالجنسية الفرنسية...".(محمد يحياتن، المصدر السابق، ص 71)، ثمّ يشير إلى معجم ثالث قائلا: "هناك مؤلف آخر كان قد أفادهم أيّما إفادة، في انتظار الحصول على معلومة شافية كافية: (Le vocabulaire français-arabe des dialectes africains) المعجم الفرنسي – العربي للهجات الدّارجة الإفريقية بالجزائر وتونس والمغرب ومصر الذي نشره المستشرق الكبير جان جوزيف مارسيل في 1837 بباريس". (أبو القاسم سعد الله

المرجع السابق، ص 72). ومن هنا نستنتج أنّ أوّل ما أشار إليه المستشرق الفرنسي هو المعجم والترجمة، وأنّ الجيوش الفرنسية هي أولى المستفيدين من الدراسات العربية (المعجمية)، وهذا يدعّم ما ذهبنا إليه، من تأكيد العلاقة الوطيدة والقوية بين الاحتلال والاستشراق، إذ كان هو المنطلق للاهتمام بكل ما هو عربي سواء أكان فصيحا أم عاميا، وإن نالت العامية حظا أوفر، وقد أبدى الباحث إبراهيم لونيسي ملاحظته حول اهتمام فرنسا الكبير بالمعاجم التي من شأنها أن تمهّد لهم الطريق لتحقيق أهدافهم، يقول: "تذكر أيضا هنا دائما في مجال الاهتمام الفرنسي باللغة العربية تلك القواميس الكثيرة التي كتبت بعد وقوع عملية الاحتلال، بل أنّ بعضا منها كتب قبل ذلك، وتمّ توظيفها بشكل كبير خلال الحملة". (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 106). سنكتشف في هذه الدّراسة سرّ هذا الاهتمام.

يحدّثنا المستشرق هنري ماسي عن نص تاريخي موجّه إلى الجزائريين، « أما الإعلان الموجه للعرب من قبل دوبورمون – وهو أول نص هام للدراسات الاستشراقية الجزائرية– فقد ترجمه قبل توجّه الجيوش الغازية جان شارل زكار (Jean-Charles Zaccar) بمساهمة المستشرقين سلفاستر دي ساسي (Sylvestre de Sacy) وبيانكي (Bianchi). كان زكار...أسقف كنيسة سانت نيكولا Saint-Nicolas بمرسيليا ودون أن يبرح الأسقفية، عيّن ترجمانا للجيش وظلّ مرتبطا بشخص الحكام العامّين من دوبورمون إلى بيجو (Bugeaud) وعندما وضع تحت تصرف أسقفية الجزائر سنة 1845 قدّم دروسا في اللغة العربية خلال ثلاث سنوات». (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص 72).

تنتج أنّ الفرنسيين كانوا بحاجة إلى مخاطبة الأهالي بلغتهم، ولهذا فقد وظّفوا تراجمة يتقنون اللّغة العربية، وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي سلفاستر دي ساسي، (هو شيخ المستشرقين كما يلقب، ولد في باريس 21 سبتمبر 1758م، توفى في 21 فبراير 1838م)، (عبد الرحمن بدوي، 1993م، ص 334)، وهو أبو

المستشرقين (لقب يطلق عليه)، كما نلاحظ أنّ أسقفا للكنيسة قد أسهم في هذا العمل، بل وبقي على اتّصال بحكام الجزائر، وعندما التحق بالجزائر اغتنم الفرصة، وقام بتعليم اللغة العربية، ولنا أن نتساءل ما الذي يجعل أسقفا فرنسيا مهمته في الكنيسة يهتم باللّغة العربية والترجمة؟ ولعلّ هذا يؤكّد علاقة الاستشراق بالتّنصير والاستدمار معا.

وقد أشار المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى الدور المسند إلى رجال الدين: «ولنلاحظ أيضا أنّ بعض التّعليم الابتدائي قد أصبح في أيدي الأسقفية الكاثوليكية التي تأسست سنة 1838م، وهو ما نسميه بالمدارس الدينية أو الكنيسة» (أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3، ص293)، فقد وُظِّفوا لتعليم اللّغة العربية للفرنسيين، واللّغة الفرنسية بما تحمله من دين ودنيا للجزائريين، بما يضمن لهم مسخ العقول وتحويلها إلى عجينة طيّعة يشكلونها كما يشاؤون.

إنّ أوّل ما نلاحظه عند تتبعنا للدراسات العربية التي قام بها الفرنسيون بالجزائر هو اهتمامهم بالمعجم، وهذا منطقي، إذ تمكّن معرفةُ لغة العدو الفرنسيين من النّفوذ إلى أغواره وكشف أسراره، والمعجم هو الذي حقّق لهم ذلك بالدّرجة الأولى.

كانت الحاجة هي التي توجه نوع الدّراسات والمؤلفات المهتمة باللّغة العربية بالجزائر، يقول هنري ماسي: "احتاج الفرنسيون إلى تراجمة في سلك العدالة بالجزائر، إلاّ أنّهم احتاروا حول صيغ التّحرير في الأحكام القضائية وترجمتها. وكانت الكتب المؤلفة آنذاك بالدارجة وهي موجهة للفرنسيين بالدرجة الأولى. «نشر فرعون أوّل نحو للعربية الدارجة الجزائرية موجه للفرنسيين، وذلك منذ 1832 (Grammaire élémentaire d'arabe vulgaire ou algérien a l'usage des français) وتتابعت الأعمال تلو الأخرى ومعظمها اهتمت بالدارجة». (محمد يحياتن، مصدر سابق، ص 76)، حاول الفرنسيون طمس هوية الجزائريين بكل الوسائل، واستعانوا

بكل الفئات والمجالات، بدءا بوضع الخطط للقضاء على اللّغة العربية الفصحى وتشجيع الدراسات المهتمة باللّهجات، ونشر دينهم وتشويه الإسلام، أما أكثر من استعانوا به فهم العسكريون الذين كان معظمهم من المستشرقين أو ممن يتعاملون معهم، وقد ذكر المستشرق هنري ماسي في مقاله أهم الأسماء التي كان لها شأن في هذا المجال.

3-1-1- التّراجمة العسكريون: سنتعرّف على أبرز العسكريين الذين خدموا الاحتلال الفرنسي، وأسهموا في بقاء الجزائر أسيرة فرنسا أكثر من مائة وثلاثين سنة، يقول هنري ماسي: «لقد انتمى لهذا السلك من التراجمة العسكريين، بشكل دائم ضباط متعلمون ومغاوير: إن نحن اقتصرنا على أولئك الذين برزوا بفضل منشوراتهم المتعلقة بالدّراسات العربية، فلا بدّ أن نذكر بخاصة:

آرنو (Arnaud)، باقار (Bagard)، باروخ (Baruch)، بروسلار (brosselard) كلارك (clerc) دومون(dumont) فيرو(féraud) قوان (guin)، هيرو(hureaux) إسماعيل هامت (Ismaël hamet) مارتان (martin)، ميرسيي (mercier)، مبير (meyer)، بينتو (pinto)، ريموزا (rémusat)، روسو (rousseau) سينيات (seignette) سيكار (sicard)، سونك (sonneck) توشون (tauchon)، فينيار (vignard) فانسان(vincent). ويعد بوسيي مارسولان (Baussier) (1821-1873) على رأس القائمة. وله قاموس ضخم بعنوان (dictionnaire pratique arabe-français)». (محمد يحياتن، المصدر نفسه، ص 104) اقتصر صاحب المقال على ذكر المستشرقين العسكريين، وهذا يؤكد ما ذكرناه في البداية كما يقال: "وشهد شاهد من أهلها"، فهل نحتاج إلى أكثر من هذا لترسخ المعلومة ونعيَ الحقيقة؟

ينقل هنري ماسي المدح الموجّه للمستشرق العسكري الرائد في المعجم "بوسي"، والذي اعتبره فخرا لفرنسا، وللاستشراق الفرنسي بالجزائر «وقد امتدح وليام مارسي في مستدركه على قاموس بوسي بقوله: "يمكن عدّه

العمل الرائد للمدرسة الجزائرية القديمة للمستعربين. إنّ هـذا الكتـاب الضخم يمتاز عن سيل الطرائق العلمية والمعاجم ونماذج الخط العربـي التي غمرت بشكل مؤذ مجال الاستشراق الجزائري طيلة سنوات...إنّه من جميـع الوجوه جدير بالتّقريظ الذي صدر ذات يوم عـن دوزي، إذ إنّ دوزي المستعرب الهولندي الكبير ذا الأصل الفرنسي قد صرّح في مقدمة مستدركه على القواميس العربية (supplément aux dictionnaires arabes)، بأنّه يَعدّ كتاب بوسي بمثابة أحسن قاموس للغة العربية الحديثة». (محمد يحياتن، المصدر نفسه، ص105) يُتبع المستشرق هنري ماسي هذا الكلام بقوله: «غير أنّه بإمكاننا أن نتساءل إن نحن نظرنا إليها من وجهة زمانية تاريخية ما إذا كانت قد خضعت لنزعة ما، إنّه ليحسن بنا في هذا المقام إلقاء نظرة إلى الوراء وفحص موقف السلطات العمومية حيال الدّراسات العربية في الجزائر، وهذا بشكل مختصر». (محمد يحياتن المصدر نفسه، ص106). وكأنّ صاحب المقال يلمّح إلى بعض الخلفيات التي ذكرناها في بداية هذه الدّراسة إلاّ أنّه لم يفصّل في الأمر، ثم يواصل قائلا: « إنّه لا يليق بنا إذن توجيه اللائمة للسلطات العمومية بدعوى تجاهلها أهمية اللغة العربية إلى غاية ذلكم الحين. بيد أنّـه – إن وضعنـا جـانبا الرعايـة المسندة لـ "الاستقصاء العلمي للجزائر" والاعتمادات المالية الممنوحة لبعض الكتب الأخرى ككتب دوسلان مثلا يبدو أنّها كانت بوجه عام تنظر إلى دراسة هذه اللّغة كوسيلة للتغلغل السياسي، وليس كعنصر من الثقافة الفكرية وبصنيعها هذا ظلّت محصورة في الدور الموكل إليها». (محمد يحياتن، المصدر نفسه، ص108) نلاحظ أنّ المستشرق يعترف في هذا المقطع بسر من أسرار اهتمام فرنسا باللّغة العربية، وهذا ما أكّده المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله: «ويرى ناقد آخر أنّ تدريس اللغة العربية كان ينظر إليه من جانب الإدارة، على أنّه وسيلة اتّصال مع الأهالي والعلاقات التجارية، وقد ساعد على ذلك أيضا أنّ مؤلفي الكتب المدرسية

كانوا يكرّسون هذا المفهوم في عقول تلاميذهم وفي الجمهور، فهم يؤلفون كتبا في النّحو وغيره للتّطبيق العملي على اللهجة المحلية...». (أبو القاسم سعد الله المرجع السابق، ص316).

يعترف هنري ماسي نفسه بنوعية الاهتمام باللّغة العربية، وبأنّها إنّما تهتم بها بالشكل الذي يخدم مصالح فرنسا وليس بالشكل الذي يجعلها لغة علم وحضارة: «إنّ غياب هذه الأعمال شبه التّام جعل اللّغة العربية ينظر إليها بوصفها أداة بسيطة للاتّصال بالأهالي ليس إلاّ، وهكذا تمّ نسيان ذكريات حضارة مجيدة تنطوي عليها المؤلفات المدونة بهذه اللّغة، كما تعطّل دخول العربية إلى حياض التّعليم العالي بسبب ذلك». (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص108)، لا أرى أنّ هذا الكلام بحاجة إلى تعليق. سنتعرّف على المجال الثاني الذي اهتمت به فرنسا أو بالأحرى الذي وجّهته لتحقيق مصالحها.

عرفنا مما سبق أنّ فرنسا احتاجت بالدّرجة الأولى إلى التّواصل مع الجزائريين ومخاطبتهم، وهو ما جعلهم يهتمون بالمعجم والترجمة ومن ثمّ بالتّعليم، وهو المجال الثاني الذي أولته أهمية كبيرة، إذ كان كل من المعجم والترجمة مسخّرين لخدمة التّعليم الذي سيسدي خدمات جليلة للمستدمر الفرنسي على كل المستويات.

3-3- **الاهتمام بالتّعليم:** طبّقت فرنسا سياسة مزدوجة في مجال التّعليم، إذ عملت على نشر اللّغة الفرنسية بين الأهالي من جهة وبالمقابل شجّعت على تعليم اللّغة العربية للفرنسيين، بل اعتبرته شرطا للالتحاق ببعض الوظائف، فترى كيف كان ذلك؟

3-2-1- التّعليم بالجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي: عرفت فرنسا من خلال الدّراسات الاستشراقية التي حصلت عليها أنّ اللّغة العربية بمثابة الحصن المنيع الذي يحمي الجزائريين، ويربطهم بدينهم وعقيدتهم، وهي سر قوّتهم، فكانت اللّغة العربية أول ما هاجمته فرنسا، «إنّ المكانة التي تتمتع بها اللّغة العربية في

المجتمع الجزائري، دينيا، واجتماعيا، ونفسيا، وثقافيا وحضاريا ودورها الفعال في الحفاظ على الوحدة الوطنية بكل تراثها وموروثها الثقافي والاجتماعي، وكونها أداة تواصل مع تاريخ الجزائر العريق وجذورها الحضارية، هذا كله لم يكن غائبا على خبراء المخابر اللغوية، وتحاليل علماء النفس اللغوي، الذين أجمعوا على أنّ اللغة العربية في الجزائر هي صمام أمان يجب إتلافه، وهي أخطر ما يعترض مشروع فرنسا "فرنسة الجزائر" ثقافيا واجتماعيا، وبالتالي أصبح في حكم المؤكد تحطيم هذا الصور الواقي، وهذا الحصن المنيع للفرد والمجتمع». (الطيب بن إبراهيم 2004م، ص149). وقد توحّدت آراء الفرنسيين وجهودهم لترسيخ هذه الفكرة وتجسيدها فوق أرض الواقع. «ونذكر هنا على سبيل المثال تلك الرّسالة التي أرسلها المتصرّف المدني الفرنسي في الجزائر السيد" بريسون" (Bresson) – الذي كان قد خلف جنتي دي بوسي في هذا المنصب سنة 1836م– إلى المفتش العام للتعليم، والتي دعا فيها إلى ضرورة دراسة اللّغة العربية والتوسع فيها، وهذا بهدف معرفة عادات وتقاليد الأهالي وطريقة تفكيرهم، ويرى أنّ هذه العملية لا يجب أن تتوقف على مجموعة من المترجمين، بل يجب توسيعها إلى بعض رجال الثقافة والفكر وعلى رأسهم المستشرقين». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 101) بدأت الجهود تبذل لتعليم الفرنسيين اللّغة العربية، وللعرب واليهود الفرنسية، يشير هنري ماسي إلى «انتظام دراسة اللّغة العربية في الجزائر منذ سنة 1838م تحت إشراف برينيي، وكانت المحاولات الأولى في 1831م، وقد أشار كور (cour) إلى أستاذيات اللّغة العربية في المجلة الإفريقية سنة 1924م. ركّز الفرنسيون في بداية الأمر على تعليم اللّغة العربية للفرنسيين، وتعليم اللّغة الفرنسية للأهالي، وكانت هذه الدروس عمومية ومجانية، أسند تدريس اللّغة العربية للسيد جواني فرعون الذي حظي بنجاح جم، واضطر إلى مضاعفة دروسه، وهو ترجمان الحملة الفرنسية على مصر، عيّن في 1832 أستاذا للّغة العربية في الجزائر في ثانوية

لويس لوقران الذي توفي قبل تولي أستاذية الجزائر». (محمد يحياتن 2005م، ص 73)، وهذا يعني أنّ هناك تشجيع لتعليم اللّغة العربية وارتباطه في الوقت ذاته بعاملين إما بالكنيسة أو الجيش، إذ كان جواني فرعون ترجمانا أثناء الحملة الفرنسية على مصر؟ "أنشئت أستاذية لتدريس العربية للأوربيين تحت الإشراف الذكي للترجمان العسكري جواني فرعون قصد تيسير التواصل بيننا والأهالي". وهنا يُفهم أنّ الهدف من هذا التّعليم هو التّواصل مع الجزائريين.

لقد شاع بين النّاس أنّ الاستدمار علّم الجزائريين وثقّفهم، وكان حريصا على تخليصهم من جهلهم؟ «وهنا يتساءل الدارس عن حقيقة التّلاميذ الذين كانت تستقبلهم المدارس التي شيّدتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر؟ الملاحظ من خلال أعداد المبشر (جريدة) أنّ معظم التلاميذ الذين التحقوا بها أو الذين تخرجوا منها بعد نجاحهم في مختلف الامتحانات أو نالوا الجوائز، هم أولاد القيادات العربية بصفة عامة...فمثلا المادة الثالثة من القانون الخاص بالمدرسة العربية الفرنسية المعروفة باسم المدرسة السلطانية تنص على أنّ المدرسة لا تتحمل مصاريف التّلاميذ الذين يزاولون دراستهم في المدرسة، ما عدا أبناء الضباط وضباط الصف والقيادات العربية وأبناء الأهالي الذين قدّموا خدمات للدولة الفرنسية». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص87). وبهذا نستنتج أنّ الذين تعلّموا كانت فرنسا تعدّهم لخدمة مصالحها، فتحشو عقولهم بفكر غربي وتنشئهم على الولاء لها.

ورد في دراسة "فرانسوا كوربييه" (François Corbier) عن "كولونا" (Colonna): «لابدّ من إخضاع التّلاميذ لثقافة فرنسا دون أن يسمح لهم هذا التعليم بالحصول على مراكز اجتماعية، هذا الغموض يوضح التناقض في معاملتهم للجزائريين (لعبة ثنائية الأهداف)». (François Corbier, 2011, p40)، يعكس هذا التعبير الذي وظفه الباحث الفرنسي حقيقة التّحايل الفرنسي على الجزائريين، فمن

جهة يريدون إقناعهم بأنّهم يحرصون على تعليمهم وتثقيفهم، ومن جهة أخرى يبذلون جهودهم لطمس هويتهم، فأيّ حضارة لشعب تنكّر لهويّته؟

تؤكد رسالة الدوق روفيقو (Duc de Rovigo) التي أعاد استنساخها فيرو(Féraud) تصميم الفرنسيين على تمكين الأوروبيين من اللّغة العربية، وإحلال اللّغة الفرنسية محل العربية، «إنّ إيّالة الجزائر لن تصبح ملكية فرنسية حقا إلاّ حينما تنتشر في ربوعها لغتنا وتتأقلم فيها الفنون والعلوم التي هي مفخرة وطننا. إنّ سماء إفريقيا سماء الشعر والأدب. لا يمكننا أن نشك في ذكاء العرب، وإن دعت الحاجة إلى ذلك فإنّنا سنستدعي التّاريخ لإقامة الدّليل على ذلك...إنّ المعجزة الحقيقية التي ينبغي أن تحدث إنّما تكمن في إحلال الفرنسية محل اللّغة العربية تدريجيا، فاللّغة الفرنسية التي هي لغة السلطات والإدارة من شأنها أن تنتشر وسط الأهالي...وإنّي لعلى يقين بأني سأرى بعد مدة قصيرة من الزمن الفرنسيين والإيطاليين والإسبان والعرب واليهود يتحلّقون حول نفس الأساتذة وفي نفس الأوقات». (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص ص74 75)، يعتبر كلام العسكري روفيقو تحليلا عميقا للوضع وتعبيرا واضحا عن نوايا الفرنسيين اتجاه الجزائر والجزائريين، فالطريق إلى امتلاك الجزائر حسبه إنّما يكون بالقضاء على اللّغة العربية، كما نلمس نوعا من الفوقية، وقد ورد في مداخلة جلبير مينييه (Gilbert Meynier) بأنّ الفرنسيين كانوا يعتبرون أنفسهم فوق الجزائريين وأفضل منهم عرقيا. (Gilbert Meynier, 2010, p5)، كما يعتبر الجزائر بل شمال إفريقيا كلها أرضا للشّعر والأدب وهو متيقّن من أنّ هدفهم سيتحقّق ولن يطول به الأمر ومما قاله الأستاذ إبراهيم لونيسي حول هذه الرّسالة: «إنّ الإدارة الاستعمارية في الجزائر عند سعيها لنشر اللغة الفرنسية في أوساط الجزائريين كانت تدرك تمام الإدراك أنّ الشعب الذي يفقد لغته الأصلية ليكتسب لغة غيره إنّما يكتسب في الوقت نفسه ثقافة وأسلوب وحياة المستعمر الناطق بتلك اللّغة إذ ينحصر اهتمامه

بارتشاف المعرفة من المنشورات والكتب والصحف التي يصدرها المستعمر، وفي الأخير يجد هذا الشعب نفسه أسيرا لحضارة جديدة مفروضة عليه يتفاعل معها ويتعاطف مع المستعمر في قضاياه ومشكلاته. لهذا رأت الإدارة الاستعمارية ضرورة محاربة اللّغة العربية في الجزائر، لأنّ بقاء هذه اللّغة في أوساطهم سيشكل العقبة الكبرى في طريق فرض سيطرتها التامة والنّهائية على الجزائر التي لا يمكن لها أن تتحقق إلاّ بفرض اللّغة الفرنسية على الجزائر، وهذا على حد تعبير الدوق دو روفيقو الذي حكم الجزائر في الفترة ما بين ديسمبر 1831 إلى غاية بدايات سنة 1833م». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 113).

يبدو أنّ هذه الفكرة قد ترسّخت في الدّراسات التاريخية التي تشهد على نوايا وأهداف فرنسا الاستيطانية، يقول الباحث الطيّب بن إبراهيم: « لقد اختارت فرنسا الجزائر من بين بقية مستعمراتها، وأصبحت ترى فيها أنّها امتداد طبيعي لها فيما وراء البحر وعملت بكل ما أوتيت من قوة وإمكانيات لإضفاء الطابع الفرنسي عليها سياسيا، وعسكريا، وثقافيا واقتصاديا، واجتماعيا وإثنيا وسلوكيا، ونفسيا وتعرضت الجزائر لغزو متواصل ومكثف ومركب، لتحقيق نتائج قرار فرنسا الذي جعل من الجزائر جزءا من فرنسا منذ سنة 1834م». (الطيّب بن إبراهيم، المرجع السابق، ص 144).

نلاحظ أنّ فرنسا قد تعاملت مع اللّغة العربية بطريقة نفعية إلى درجة كبيرة حيث شجّعت موظفيها على تعلمها، ليتمكنوا من تنفيذ مخططاتها، ومن جهة أخرى فرضوا على الجزائريين اللّغة الفرنسية، «إلى جانب اهتمام الإدارة الاستعمارية بتدريس اللغة الفرنسية للأهالي كانت في الوقت نفسه مهتمة بتدريس اللغة العربية للفرنسيين لتحقيق جملة من الأهداف من وراء ذلك، أبرزها التعرّف على مختلف عادات وتقاليد الشعب الجزائري وهذا الاهتمام يعود إلى السنوات الأولى من الاحتلال، فلقد قرّرت الإدارة الفرنسية رفع رواتب الموظفين الفرنسيين الذين

يتعلمون اللغة العربية تحفيزا لهم على ذلك، كما قامت بإنشاء جوائز سنوية للذين يتعلمون اللغة العربية من الفرنسيين سنة 1851م، كما أعلنت وزارة الحربية عن تفضيلها عارفي العربية في الوظائف المدنية، وهذا سنة 1853م». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص113)، لابدّ أنّ هذا المخطط قد أسهمت جهات كثيرة في نجاحه، لتتحوّل الجزائر إلى بلد فرنسي تابع وخاضع، «كما عملت الإدارة الفرنسية على فرنسة كامل المحيط الجزائري، وعلى رأسها الإدارة والتّعليم، إذ أصبحت اللّغة الفرنسية هي اللّغة الرسمية الوحيدة في الجزائر، ومما ورد في قرار أصدرته السلطات الاستعمارية سنة 1849: «إنّ لغتنا هي اللّغة الحاكمة، فإنّ قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللّغة وبهذه اللّغة يجب أن تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا فإنّ أهم الأمور التي نعتني بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللّغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا، وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين». (إبراهيم لونيسي، المرجع نفسه، ص 90)، لا نتصوّر إطلاقا أنّ فرنسا تريد جعل الجزائريين فرنسيين حقيقة، بل يقصد من هذا المخطّط أن يفقد الجزائريون إحساسهم بالانتماء إلى وطنهم وعندها سيحل محله الإحساس بالضّياع وهو ما سيجعلهم قابلين للاستعباد، فهي تعلم جيّدا أنّه لا يوجد شعب يتنكّر لوطنه إلاّ وذلّ وهان، ونحن نعلم علم اليقين أنّه لا عزة لإنسان إلاّ في وطنه وبوطنه مهما كان هذا الوطن، ومن ابتغاها في غير وطنه أبدل بها ذلا وخسارا.

ولو سمح المقام لتحدّثنا عن بعض الدراسات التي قام بها بعض الباحثين الفرنسيين على الجزائريين، مدّعين أنّ تركيبة دماغ الإنسان الجزائري تدل على تخلّفه، بحيث لا يمكنه مسايرة حضارة فرنسا، وبالطبع كانت هذه الدّراسات مما يروج له الفرنسيون ليعيدوا تشكيل عقلية الجزائري، فينشأ على هذه الحقيقة (العبقرية) التي توصّل إليها الفرنسيون، «كما شكّ بوليو في أنّ عقول الجزائريين

كانت لا تستسيغ التعليم الفرنسي في هذا المستوى، وهو تشكيك غريب منه، وربما كان متأثرا بمدرسة داروين ونيتشه وغوبينو وغيرهم». (أبو القاسم سعد الله المرجع السابق، ص 302)، ثمّ كيف لنا أن نصدّق أنّ فرنسا ستستقبل هؤلاء وتنزلهم منزلة الفرنسيين الأذكياء، إنّ التّاريخ يشهد على أنّ فرنسا لم تساو يوما بين أتباعها من الجزائريين وإن تجنّسوا بالجنسية الفرنسية ورعاياها الفرنسيين فكيف لمن يخون وطنه وأبناء جلدته أن يحظى بثقة الآخر؟ هذه عيّنات من مخططات فرنسا، وما كانت تروّج له في الداخل والخارج، ويكفي أن نتأمّل واقعنا لنعرف إلى أي مدى نجحت فرنسا في مخطّطاتها؟

عرفنا الأهمية التي أولتها فرنسا لمجال التّعليم، وكيف استغلته لخدمة مصالحها سنتناول في هذه المحطة أهم الأستاذيات التي أنشئت بالجزائر، لتعزيز هذا المجال.

3-2-**2-أستاذيات اللّغة العربية بالجزائر:** رأت فرنسا ضرورة إيجاد مؤسسات رسمية تتولى مهمّة التّعليم في الجزائر، والتي أنيطت بها مهمة تنفيذ مخططات الاستدمار الفرنسي، وهذا ما حدث حيث "أنشئت أستاذية للّغة العربية الدارجة بمعهد الجزائر، عيّن على رأسها قرقس (Gorgos) مؤلف بعض المقالات والكتب المدرسية سنة 1846م (عن طريق المسابقة)، ثمّ زوّدت قسنطينة بأستاذية للعربية درّس بها المترجم العسكري فينيار خلال أشهر، ثمّ عوّضه شيربونو في 21 ديسمبر1846،غداة ذلك أنشئت أستاذية للعربية الدارجة في وهران، وقد أسندت للمترجم هدمارد (Hadamard)". (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص 85) بالإضافة إلى أستاذية للتّعليم الثانوي.

يعترف شارل جونار أنّ مدرسة الآداب تلك قدّمت لهم خدمات جليلة في عملية فرض سيطرتهم على شمال إفريقيا: «وجميع الأبحاث المناسبة لسيطرتنا في إفريقيا الشمالية الفسيحة تنتج هناك، ففيها يجتمع وينتقي ما يأتي، وما سيأتي من الأنظار العلمية والأبحاث العرفانية على يد ضباطنا ومستطلعينا وسواحنا من جميع

الجهات... ولاشكّ أنّها كنوز يشترك فيها الجميع إذ أنّ العلم لا حد له، وليس بوقف على أحد دون أحد. بعد ذلك يعترف بمدى عظمة الخدمة التي قدّمها الاستشراق للحركة الاستعمارية إذ قام بفتح باب السيطرة على شعوب الشرق، وهذا بفضل الدّراسات والتّآليف التي أنتجوها في مختلف الميادين، (نعم العلم الشرقي بصّرنا بالأخلاق والعادات والقوانين الشرعية عند الأمم الإسلامية، فأعاننا على حل المشكلات العويصة التي منشؤها اختلاف الجنس والدين». (إبراهيم لونيسي المرجع السابق، ص 155) يتبيّن في هذا الاعتراف الصّريح أنّ جلّ البحوث والدّراسات استغلت لإحكام القبضة على الجزائر والجزائريين.

أما القائمين على الأستاذيات في الجزائر، فيقول هنري ماسي: « درّس بها فضلا عن فرعون وبرينيي كل من كومباريل (Combarel) (1847-1869) وريشوبي (Richebé) (1874- 1877) وهوداس (Houdas). في وهران هدمارد (1846- 1855) وكومباريل (1855-1869). وهوداس (1869-1877) وماشويل (Machuel) (1877-1881)، ودلفين (Delphin) وموليارس (Mouliéras) (1874-1889)، ودوكلنستي- موتلنسكي (Calasanti-Motylinski) (1889-1906) وكور»، (محمد يحياتن، 2005م، ص 86). إنّ هذا العدد من المستشرقين المسخّرين لتعليم اللّغة العربية بالجزائر، ليدلّ بجلاء على الاهتمام الذي أولته فرنسا للتّعليم، ولا يمكن أن تسخّر كل هذه الإمكانيات دون أن تكون المستفيد الأكبر من ذلك. لا نزال نتتبع ما ورد في مقال المستشرق الفرنسي هنري ماسي، وقد عرفنا إلى حد الآن أنّ فرنسا اهتمت كثيرا بالمعجم، وبتعليم اللّغة العربية، والفرنسية، وإن كانت تحرص على أن لا يتجاوز مستوى الطلبة الجزائريين الابتدائي لتسخرهم لخدمتها في الفلاحة وسائر المهام الشاقة.

سنقف عند أحد المستشرقين الذين اهتموا بتعليم اللّغة العربية في الجزائر، ونال حصة الأسد في مقال هنري ماسي، فترى من هو هذا المستشرق، وما الذي قدّمه في هذا المجال؟

3-2-3- المستشرق الفرنسي برنييه (Louis-Jacques bresnier): ورد تعريفه في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، «ولد برنييه في مونتارجي سنة 1814م وتوفي سنة 1869م، كان عاملا في مطبعة لصف الحروف، وهو في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، أبدى استعدادا خارقا لتعلّم لغات الشرق الإسلامي، وهذا ما شدّ إليه انتباه أستاذه سلفستر دي ساسي، فأوصى الحكومة (وكانت قد احتلت الجزائر) بتكليف برنييه بإنشاء تعليم العربية في الجزائر للفرنسيين في 1836م... وكوّن مجموعة من المترجمين الفرنسيين الذين يحسنون اللّغة العربية، وعمل هؤلاء في خدمة الإدارة الفرنسية الحاكمة في الجزائر...» (عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 97). عيّن برنييه بتشجيع من "دي ساسي" أستاذا للعربية الدارجة على كرسي الأستاذية، وسنرى أنّه سيقوم بجهود معتبرة لأداء هذه المهمة المسندة إليه.

أما عن انطلاق برنييه الرّسمي فيقول هنري ماسي: «كانت بدايته الرسمية في جانفي1837م، وقد نشرت جريدة "Moniteur Algérien" درسه الأوّل، الذي شكر فيه جهود السّابقين بالجزائر، كما تحدّث عن نقص مصنّفات تعليم اللّغة العربية الدارجة (arabe barbaresque)، ونصح طلبته بمطالعة كتب النّحو لكل من أربنيوس ودي ساسي، بالإضافة إلى نحو العربية الدراجة لكوسان دوبرسوفال، الذي اعتبر أحسن مصنف في هذا المجال»، (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص77)، لم يغفل برنييه عن أعمال سابقيه بل أشاد بجهودهم، ووجّه طلبته إلى كتب تساعدهم في تحصيل اللّغة العربية الدارجة.

ليختم درسه الأوّل بذكر مزايا دراسة اللّغة العربية بجدية قائلا: «وتتمثل في إقامة علاقات أكثر حميمية مع الأهالي الذين سيعتادون هكذا على اعتبارنا لا كغزاة...بل كحماة لمصالحهم وكمتمدنين لأقاليمهم، ودراسة آدابهم التي بفضلها يمكننا بلوغ مصدر أفكارهم وأحكامهم المسبقة وعاداتهم... تولى برينيي الإشراف على أستاذية اللّغة العربية إلى غاية وفاته في 21 جوان1869م، عند دخوله المكتبة حيث كان ينتظره طلبته، سقط لافظا أنفاسه الأخيرة»، (محمد يحياتن، المصدر نفسه، ص 78) وضّح برنييه الهدف من دراسة اللغة العربية، موضّحا أنّهم يريدون استمالة قلوب الجزائريين وكسب مودتهم وتفهمهم، وأن يغيّروا نظرتهم إلى الفرنسيين من أعداء إلى أصدقاء يحمونهم، ويجعلون بلدهم متحضرا، كما سيدرسون آدابهم التي ستمكنهم من فهم هذا المجتمع والتعرّف على عاداته والكشف عن خلفياته الفكرية وكل هذا من شأنه أن يسهّل عليهم عملية بناء صورة لهذا الآخر، ومن ثم استهلاكها والسير على نمطها وهذا يعني أنّ اهتمامهم باللغة العربية لم يكن بريئا كما يقول بعضهم، على الأقل في بدايته، إذ كان الهدف منه النفوذ إلى العقول والقلوب للسيطرة عليها، ونحن هنا لا نتّهم المستشرقين ولا نلومهم ولا نكذّبهم، فهم ينظرون إلى هذا الأمر من زاوية أخرى تجعلهم يصفون عملهم بالإيجابي والمثمر، كيف لا وهم يخدمون بأعمالهم هذه وطنهم، فقد نشؤوا على الرغبة في فرض سيطرتهم على العالم الإسلامي، ونشر لغتهم والقضاء على كل ما من شأنه أن يعيق تحقيق هذا الهدف النّبيل (في رأيهم).

علّق الأستاذ إبراهيم لونيسي على درس برنييه، موضحا « إنّ أبرز ما يستنتجه الدارس لهذا الدّرس للوهلة الأولى هو أنّ صاحبه يعد من زمرة المستشرقين الميّالين إلى الاتّجاه العلمي، وهذا بحكم الموضوعية التي حاول البروز بها في عرضه للقضية المعالجة في الدّرس، فهل الحقيقة هي كذلك؟ لقد نجحت الإدارة الاستعمارية في الجزائر في أن تستخلص من الدّرس بعض القواعد المهمّة التي

عملت على توظيفها بشكل محكم في عملية تدميرها للغة العربية الفصحى في الجزائر، وأبرز هذه القواعد يتمثل في قوله بأنّ الذين يستعملون العامية في كتاباتهم هم ذوو الثقافة الضحلة، فمن خلال هذا تنبّهت الإدارة الاستعمارية إلى أهمية العامية في تدمير البناء الفكري للإنسان الجزائري وتحويله إلى مجرّد هيكل بلا روح، وذلك عندما أخذت تعمل على تدمير الفصحى وتشجيع انتشار العامية» (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 104)، سنتعرّف على الطريقة التي يعتمدها هذا المستشرق في تعليم اللّغة العربية.

3-2-1- طريقة التّعليم عند برنييه: ورد توضيح مبادئ التّعليم التي سار وفقها المستشرق الفرنسي برنييه في مقال هنري ماسي، وكان قد عرضها سنة 1838م في مقال بالجريدة الآسيوية (journal asiatique)، بعنوان "**في تدريس العربية بالجزائر**"، « كان برينيي يرى ضرورة تخصيص سنة لتعليم اللّغة العربية الفصحى قبل مباشرة العربية الدارجة وقد قسّم التّعليم الأسبوعي إلى ثلاث حصص للتمارين الخاصة بالعربية الدارجة، وحصة أخرى يقدّم فيها مبادئ النّحو والإملاء والأسلوب، وحصة لشرح النّصوص العربية الأدبية والعلمية، ولترجمة الآداب والعقود الرسمية المتداولة». (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص 79)، لقد أدرك هذا المستشرق الفرنسي أنّه لا يمكن تعلّم اللّغة العربية الدارجة دون المرور عبر اللّغة العربية الفصحى، وهذا يعني أنّها الأصل الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وهذا شيء إيجابي للمتعلّم حتى يتحكّم في هذه اللّغة، إلاّ أنّه عندما شرح لنا برنامجه لاحظنا أنّه ركّز على اللّغة الدارجة ولعلّ هذا من توصيات الحكام الذين يملون عليه أهدافهم فما عليه إلاّ أن ينفّذها، كما نستنتج من خلال هذه الطريقة أنّه أولى الجانب التّطبيقي أهمية كبرى وواضح أنّها تخدم أهداف وحاجات الفرنسيين بالجزائر.

يقول برنييه: «إنّ الدّراسات العربية في الجزائر لا يجب أن تقتصر، كما هو الحال في أوربا على الأبحاث المتعلقة بفقه اللغة وعلم التّاريخ والأدب فحسب، بل يجب كذلك أن توفر أدوات فهم وتوصيل جميع أشكال التّفكير على نحو عفوي سواء أكان ذلك في المشافهة أم في الكتابة... في بداية الأمر يجب قرن التّطبيقي بالنّظري اللّذين يتعيّن على أحدهما إثراء الآخر»، (محمد يحياتن، المصدر السابق ص 80)، يصرّ هذا المستشرق على الاستعانة بالنّظري والتّطبيقي المستمدين من الواقع المعيش، ونفهم أنّ هدفه الرئيس هو تحسين عملية التبادل الثقافي والفكري التي لا تتحقق إلاّ باعتماد الأساليب العفوية للأهالي، يواصل كلامه «ومن أوجه التّجديد الممتازة اعتماد نماذج الكتابة مطبقة على جميع مباحث الأدب والممارسة اليومية، ينقسم الدّرس المدعوم بالأمثلة والنّصوص المختلفة إلى ستة كتب: مبادئ في اللّغة الدارجة مبادئ مفصلة في القراءة، مبادئ في النّحو والتراكيب والعروض واللّهجات». (محمد يحياتن، المصدر نفسه، ص 80)، يستند برنييه إلى كتب تساعد المتعلّم على اكتساب لغة حية حسبه باعتبارها هي المستعملة بين المتكلمين؛ (يُقصد باللغة الحية العامية).

3-2-3-2- مؤلفات برنييه: تعرفنا على المستشرق برينيه معلّما وسنكتشفه في هذا الموضع مؤلفا، فهل يا ترى واصل عطاءه في المجال نفسه أو أنّه أبدع في مجالات أخرى؟ وفيما يلي أهم الكتب التي ألّفها:

1- كتاب "مبادئ اللّغة العربية المنطوقة في الجزائر وإيالتها"، سنة 1838م سجّل فيه الصّفات المميّزة للّهجة الجزائرية، وتفاصيل عن الثقافة الفكرية للأهالي.

2- كتاب النّحو العربي لداوود الصنهاجي الأجرومية (Djaroumiya) .

3- كتاب (anthologie arabe élémentaire)، وهو كتاب مدرسي جيّد.

4- نشر في سنة 1842م كتابه مبادئ في الخط العربي (élément de calligraphie).

5- كتاب (chrestomathie arabe) نصوص عربية مختارة سنة 1845، وهو عبارة عن مجموعة رسائل وعقود ووثائق معاصرة. وشكّل المؤلَفان الأخيران أسس تعليم اللّغة العربية في الجزائر خلال العديد من السّنين.

6- الكتاب الموسوم: "دروس نظرية وتطبيقية للغة العربية" سنة 1855م، الذي لقي نجاحا كبيرا

(Leçons théoriques et pratique du cours public de langue arabe) .

7- كتاب "المبادئ الأساسية للغة العربية"، (principes élémentaires de la langue arabe)، نشر سنة 1867 م، وهي صورة مختزلة لدروسه. (محمد يحياتن المصدر نفسه، ص 80).

تعكس هذه العناوين اهتمام المستشرق برنييه بميدان التّعليم، بداية من أوّل كتاب سنة 1938م إلى آخر مؤلف سنة 1967م، وكلّها تصبّ في تعليم اللغة العربية الدارجة، إلاّ أنّنا نلاحظ اهتمامه بالجانب الثقافي للجزائريين، بالإضافة إلى الجانب التّعليمي، وهذا ما يعني وجود تكامل بين الأمرين، ففي النّهاية الهدف من تعليم اللّغة العربية هو التّغلغل إلى أعماق المجتمع الجزائري، ولا يكون ذلك إلاّ بإتقان لغته لتحقيق الأهداف الأخرى على المدى البعيد.

اهتمت فرنسا بالعامية لإدراكها أنّه السبيل المختصر للقضاء على الفصحى وروجوا لفكرة صعوبة الفصحى وسهولة الدارجة، «وبقدر ما اجتهد الغزاة في تبيان حقدهم وعدائهم للعربية، اجتهدوا في تبيان ما رأوه مزايا للعامية. تجنّد المستشرقون يجدّون ويجتهدون في تعلّم وتعليم العامية، والتّخصص فيها، والدعوة إلى تعليمها... ولم يتوقف الأمر عند المستشرقين بل سابقهم في ذلك بعض العرب المستغربين، وتبنوا نفس الطّرح ودعوا لاستعمال العامية لسهولتها... وهناك البعض الآخر دعا إلى العامية وتعليمها واستعمالها، لكن بالحرف اللاتيني وليس بالحرف العربي». (الطيب بن إبراهيم، المرجع السابق، ص153)، كما أنّ

الفرنسيين لم ينكروا مخططاتهم وحيلهم لإخضاع المجتمع الجزائري. « كتب أحد دعاة التّعليم الاستعماري في هذا الشأن فقال: "إنّ أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا وجعلها أكثر ولاء وإخلاصا في خدمتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود إذن باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيّف فيها عقولهم حسبما نريد». (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص115)، هذا اعتراف وتصريح من لدن الفرنسيين يعكس نظرة الازدراء والاحتقار اتجاه الجزائريين.

3- 2-3-3- شهادات زملائه من المستشرقين الفرنسيين: يمتلك المستشرقون خصائص إيجابية كثيرة أسهمت في نجاحهم، وسمحت لهم بتحقيق أهدافهم، ولعلّ أكثر شيء شدّ انتباهي هو تكاتف الجهود وتكاملها، فالعمل عندهم لا يرتبط بالأشخاص، بل يعتبرون أعمالهم بمثابة القربان الذي يتقربون به إلى وطنهم، والدّليل على ذلك وجود مستشرقين في وظائف دون مقابل، كما يشجّع بعضهم البعض، ويثمّنون الجهود المبذولة من قبل زملائهم.

يقول هنري ماسي: "كان لابدّ أن نفرد مكانا واسعا لهذا الدارس المجتهد المحترم الذي كان رجل خير وبرّ حسب الشهادات المعاصرة". ثمّ يستشهد بما قاله زميليه، حيث قال شيربونو (Cherbonneau) خلال تأبين برنييه: "كان برنيي يتحلى بصفة ممتازة للغاية: كان طيّبا بطبعه... فحيث كان لابدّ من تقديم الأعمال الخيّرة ألفيته يجنح لذلك...إنّ هذه الخصال الجمّة التي كان يحجبها تواضعه الذي يغضبه أي شكل من أشكال المدح قد اختفت نهائيا... وقال رينان في أحد تقاريره محييا روح برينيي" إنّ أعماله المطبوعة التي يتّسم جلّها بالطابع العملي لا يمكن إلاّ أن تشي بمعرفته العميقة باللّغة العربية الفصحى". (محمد يحياتن، المصدر

نفسه، ص 82)، وبعدما عرضنا مسار أحد المستشرقين الذين خدموا الاستشراق الفرنسي بالجزائر، ولاسيّما في مجال التّعليم.

4- **مجال البحوث والدّراسات العلمية:** اهتمت فرنسا بالإضافة إلى ما سبق بمجالات أخرى تخدم مصالحها، وأسّست لذلك جمعيات تسهّل لها هذه المهمّة فترى ما هي هذه الجمعيات؟ يجيبنا هنري ماسي قائلا: "تأسست الجمعية الحفرية لقسنطينة في ديسمبر1852، من أعضائها المؤسسين نجد شيربونو وبرولار وفينيار، ومنذ 1853 أصدرت الجمعية دليلا سنويا تحوّل هذا الدّليل في 1854م إلى سجل ملخصات ومذكرات الجمعية، وكانت الجمعية تضم بعض المتخصصين اللامعين في الإسلاميات، ونجد الجمعية التاريخية الجزائرية التي تأسست أربع سنوات بعد ذلك بالجزائر في 1856، بمبادرة من بربروجر، وقد اهتمت بالدراسات العربية، أما الجمعيتان الأخريان من نفس القبيل أي مجمع هيبون (بونة) وجمعية الجغرافيا والحفريات لوهران، فقد أنشئتا تباعا في 1863 و1878. (محمد يحياتن المصدر نفسه، ص99)، يحقّ لنا أن نتساءل عن حاجة فرنسا إلى هذه الجمعيات وماذا الذي تستفيده فرنسا منها؟

لا بدّ أنّ التّأمل في طبيعة هذه الجمعيات يكشف لنا مآرب الفرنسيين من وراء هذه المنظمات، تدور هذه الاختصاصات حول كل ما هو حفريات وإسلاميات وتاريخ، وجغرافيا، وكلنا يعلم أهميتها لترسيخ قدم فرنسا بالجزائر. ومما ورد حول هذه الجمعيات ووظيفتها في دراسة كريستين لورييرChristine Lauriers)، «إنّ الباحثين الأنتروبولوجيين يصرّحون أنّ القيام بدراسات حول الشعوب المستعمرة وتحضير تقارير لمصلحة فرنسا، ولاسيما فيما يخص نظرية العرق، وتفوق العنصر الفرنسي على سائر الشعوب الإفريقية يُعدّ واجبا روحيا اتجاه فرنسا». (voire Christine Lauriers, 2015, p118). وهذا يدلّ على أنّ معظم هذه الدّراسات

كانت موجهة، وافتقرت إلى الموضوعية التي كان الباحثون آنذاك يدّعونها، ومن الأهداف التي سعوا إلى تحقيقها تشويه صورة الجزائري داخليا وخارجيا.

وقد تردّدت مثل هذه الادّعاءات في كلام الفرنسيين، وعلى ألسنة حكامهم وعسكرييهم، يقول الباحث إبراهيم لونيسي في هذا السياق، "ونجد جونار يتهم الشعب الجزائري بأشنع التّهم وأبشعها، إذ كان حسبه لا يعرف سوى النهب والسلب وإثارة الفتن، وعندما جاءت فرنسا استطاعت أن تؤدبه وتستأنسه حتى أنّه أصبح يستقبل هؤلاء المستشرقين بالبشاشة والابتهاج..." يرد عليه الباحث الجزائري: "على القارئ هنا أن يضع العشرات من علامات الاستفهام... فالجزائر لم تكن أبدا ميدانا للنّهب والسلب منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، أما إذا كان يقصد تلك العمليات البحرية التي أطلقوا عليها مصطلح القرصنة، فما هي إلاّ جهاد بحري يدخل في إطار الدّفاع عن النّفس". (إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص152)، ما نفهمه من هذا الكلام أنّ فرنسا لعبت على الحبال كلّها من أجل تحقيق أهدافها.

وهنا نتأكد من العلاقة القائمة بين الاهتمام بالعربية في الجزائر والاستشراق والاحتلال، كون اللغة هي المفتاح الذي يفتح الآفاق أمام فرنسا بالجزائر، "فمحاربة فرنسا للعربية في الجزائر منذ 1830 إلى 1962م كانت حربا ضروسا ضد تاريخ الجزائر وضد حاضرها ومستقبلها، وضد وحدتها الوطنية والاجتماعية وضد هويتها العربية والإسلامية وضد انتمائها الثقافي والحضاري فالقضية لا تتوقف عند استبدال لغة بلغة فقط، والأمر ليس بهذه البساطة، فالغزو اللغوي ضرورة من ضرورات الغزو الثقافي، فلا انبعاث لأي ثقافة أو حضارة من غير لغة تنتمي لها وتنطق بلسانها، والقضاء على ثقافة ما يبدأ بالقضاء على لغتها. إنّ محاربة اللغة العربية في الجزائر، وإحلال اللّغة الفرنسية محلها، كان يمثل المشروع التّطبيقي والعملي لإلحاق الجزائر بفرنسا ثقافيا، بعد أن تمّ ذلك دستوريا وإداريا". (الطيّب

بن إبراهيم، المرجع السابق، ص149)، لقد بذلت فرنسا جهودا كبيرة، منها توظيف المستشرقين في مختلف المجالات، والواقع يعكس النتائج التي حققتها.

خاتمة هنري ماسي: لخّص المستشرق الفرنسي في نهاية مقاله أهم الميادين التي اهتم بها الفرنسيون، قائلا: «إنّ صناعة المعاجم واللسانيات والمنقوشات والتاريخ الديني والتحقيقات والترجمات للنصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والقانونية والعلمية والإثنوغرافية والفولكلور والكتب المدرسية، هي المجالات التي عني بها مستعربو الجزائر». (محمد يحياتن، المصدر السابق، ص131)، لم يذكر هنري ماسي تفاصيل كثيرة عن سر الاهتمام بهذه التخصصات، ولنا أن نستفهم ونستعلم ماذا تستفيد فرنسا من هذه الدراسات، إلاّ أنّ مجرّد التأمل فيها يسمح لنا بالكشف عن خلفيات ونوايا غير التي تدّعيها، وهذا مما ظهر لباحثينا سواء أكانوا من المشرق أم من المغرب، حيث يفصح الباحث إسماعيل أحمد عمايرة عن هذه الأهداف «...وفي وسع المرء أن يقول: إنّ الاستشراق قد اتّسع فخرج عن إطار الجهد الفردي أو حتى عن إطار الجهد المؤسسي المحدود إلى إطار المشروع الواسع الشامل الذي يستهدف إعادة تشكيل الشرق الإسلامي، ليصبح شرقا غربيا». (إسماعيل أحمد عمايرة، المرجع السابق، ص58)، ويسانده الباحث الطّيب بن إبراهيم قائلا: « ومن أوجه ما كرّسه الغزو الاستشراقي هو خلقه لشرق إنشائي تصوري صنعته رؤى الغرب وأحلامه وتصوراته، فشوّهت الحقائق، وعظّم الغرب وقزّم الشرق، وفقد إشراقته وعظمته، وزرعت بذور الشك والتشويه والتحريف حول ثقافته وتاريخه وتراثه وحضاراته...هذه المهمة الوظيفية للاستشراق تمت بأداء بارع من طرف ألمع المستشرقين الفرنسيين». (الطيب بن إبراهيم، المرجع السابق، ص122)، الأكيد أنّنا لسنا بحاجة إلى أدلة تثبت هذا الكلام، حيث انعكست هذه المخططات على واقع دوّلنا الإسلامية والعربية، ولسنا هنا في مقام يسمح بالتّفصيل في هذا الأمر، سنستشهد بعيّنة من واقعنا المعاصر

بالجزائر، وقد جاءت على لسان فرنسيين، وهي أطروحة قام بها باحث فرنسي وهو فرانسوا كوربييه، (François Corbier) حول المدارس الفرنسية بتيزي–وزو والتي نشأت في البداية بطريقة غير شرعية، ثم أخذت طريقها إلى التّرسيم، يحدّثنا الباحث عن أهم النتائج التي توصّل إليها من خلال بحثه، والتي تتمحور حول فقدان الهوية لدى الطالب الجزائري، (منطقة القبائل بتيزي وزو نموذجا) جراء إحاطته بأجواء فرنسية، فهو يرفض اللّغة العربية، وتاريخه، وكل ما هو دين، فيعيش هؤلاء نوعا من الاغتراب سواء المهاجرون منهم أم الباقون في وطنهم. (François Corbier, ibid, p249)، يتفق الجميع شرقا وغربا على أنّ أبناء هذه الشعوب المستعمرة، ولاسيّما الشباب منهم منبهرون بالغرب أيّما انبهار، متناسين بذلك مخططاته التي أسهمت بشكل كبير في معظم ما يتخبّط فيه الشرق الذي كان شمسا حوّل الغرب وجهتها إليه، لتغرب في المشرق وتشرق عنده.

ما أودّ أن أختم به هو التّأكيد على نظرة التفوق العنصري التي رافقت وترافق الفرنسيين، وهم يتحدثون عن الجزائريين وكأنّها حقيقة، بل من المسلمات التي أعلنت عنها وقرّرتها مرارا، ولا نرى من الحضارة في شيء تحقير الآخرين ونعتهم بالضعف والبدائية، حيث تؤكد الدراسات النّفسية أنّ العظماء يهتمون بشؤونهم وعلومهم وترقية معارفهم، ولا يبنون عظمتهم على أنقاض غيرهم، ولا يفعل ذلك إلاّ من أحسّ نقصا في ذاته، إذ لو لم يروا خطرا في هذه الشّعوب ونقصا في أنفسهم وحضارتهم، ما كانوا ليبحثوا عن عثرات الآخرين وضعفهم ليثبتوا لأنفسهم قبل غيرهم، أنّهم الأقوى، ولسنا هاهنا بحاجة إلى حجة، فهم أنفسهم ذكروا هذا في دراساتهم.

أما المسألة المحيّرة، فهي ما نسمعه من بعض شبابنا الأعزاء، الذين يتحدّثون عن فضل فرنسا على الجزائر، بل ويشيدون بما شيّدته في بلدهم، متناسين بذلك الحقيقة المرّة، تلك الفترة التي عانى فيها أجدادنا، وحُوِّلوا إلى عبيد وهم في عقر

دارهم، فلا عرضهم سلم من وحشية فرنسا، ولا أرواحهم، ولا ممتلكاتهم، فثروات الجزائر كلّها كانت بيد الفرنسيين، يستغلونها لخدمة فرنسا والفرنسيين، في حين عاش الجزائريون في فقر مدقع، محرومين من أدنى حقوقهم، لقد حوّلت فرنسا الجزائر إلى مملكة فرنسية، وما شيّدته وفعلته كلّه كان موجّها لها ولمستوطنيها، إذ لم تتصوّر فرنسا يوما أنّها ستخرج من الجزائر، فلا يفهم المتفرّج على أحداث هذه الحكاية ماذا الذي يحدث وكيف حدث؟ لغز محيّر حقيقة؛ من يدري؟ ربّما سيأتي يوم توضع فيه النّقاط على الحروف، وتشرق الشمس من المشرق من جديد وتعلن الحكاية عن أحداث النّهاية.

قد يتساءل القارئ الكريم ما الذي جرّنا إلى هذا الكلام، وما علاقة هذا المقال بما يحدث في أذهان الشّباب؟ أقول هذا جزء من الجواب، فقد أجبنا على أسئلة المقال، وبقي أن نعرف آثار هذه الدّراسات أو هذا الاستشراق على الجزائر وفرنسا، وقد يكون هذا أهم ما في هذه الدّراسة. وصلنا إلى آخر محطة وليست هي الأخيرة، فأحداث الحكاية مستمرة، ولا ندري ما ستسفر عنه النّهاية؟ ما نعلمه الآن أنّ فرنسا حقّقت في الجزائر ما خططت له، بل أكثر ممّا كانت تطمح إليه، فقد حققت بعد خروجها من الجزائر ما عجزت عن تحقيقه وهي بداخلها.

أما الآن، فقد آن الأوان لأختم بشكري الخالص وثنائي الجميل لأستاذنا وفقيدنا الدّكتور المرحوم محمد يحياتن، الذي اهتم بهذه المقالات الواردة بالمجلة الإفريقية والتي تتبعت دراسات الفرنسيين بالجزائر، مبرزا كل ما يمت بصلة إلى اللّغة العربية، وقد أسهمت في إعطائنا صورة حيّة وواقعية عمّا كان يحدث آنذاك في الجزائر على لسان الفرنسيين أنفسهم. حقيقة استفدت وأفدت كثيرا من هذا المقال الذي جعله الدكتور المرحوم يحياتن يسيرا ميسّرا بين يدي القارئ العربي، مثريا بذلك مكتبتنا بعمل مميّز، يبقى شاهدا على تميّز أعماله وإتقانها، وهو ما مكّننا من

الإجابة على الإشكاليات المطروحة. ولئن غاب عنا فإنّ أخلاقه وفكره وعلمه لا تزال تعيش بيننا وتبقيه حيًّا في قلوبنا وأذهاننا، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

نسأل الله عزّ وجل أن يعلمنا ما جهلنا وينفعنا بما علّمنا، وأن يوفّقنا إلى ما يحب ويرضى، ونسأله الإخلاص في القول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع باللّغة العربية:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- إبراهيم لونيسي، بحوث في التّاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي، دط، دار هومه، الجزائر، 2013م.

- إبراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام (مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية)، دط، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2010م.

- أحمد باقر وعبد الله مبارك، الحروب الصليبية، دط، مجلة الهجرة، نيويورك 1981م.

- أحمد عبد الرحيم السايح، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط1 دار المصرية اللّبنانية، القاهرة، 1996.

- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم باللغة العربية، بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، ط2، دار حنين، الأردن، 1992م

- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار الملايين بيروت، 1993

- عبد الرحمن حنبكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير- الاستشراق - الاستعمار، ط8، دار القلم، دمشق، 2000م.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1998م، ج3، ج6.

- محمد فاروق النبهان، الاستشراق، تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط 1433ه-2012م.

محمد يحياتن، دراسات حول اللغة العربية خلال فترة الاستعمار، (1830-1930)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005 .

- ممدوح حسين وشاكر مصطفى، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري سنة 668 -792هـ/1270-1390م، ط1، دار عمار، عمان 1419هـ-1998م.

- ابن منظور، لسان العرب، دط، دار المعارف، مصر، دت.

المراجع باللغة الفرنسية:

- Christine Laurière, La recomposition de la science de l'Homme, Les Carnets de Bérose direction générale des Patrimoines, département pilotage de la recherche et de la politique scientifique, 2015.

-François Corbier, les écoles « françaises » de Tizi-Ouzou émigration politique et francité en ALGERIE, thèse de doctorat, université d'Aix – Marseille- université Provence, décembre 2011.

-Gilbert Meynier, « L'historiographie française de l'Algérie et les Algériens en système colonial », Intervention à l'invitation, Alger le 22 octobre 2010 à *d'El Wantan,*.

- Pierre Singravélou, les sciences coloniales en France sous la III république publication de la Sorbonne, paris.